سينما

جمود نشاط السينما في المغرب

كم حاجة قتلناها بتركها؟

تواجه السينما في المغرب معضلة اقتصادية خطرة، بسبب الاستمرار في إقفال الصالات السينمائية، وغياب أي دعم مالي رسميّ لها وللعاملين فيها

سعيد المزواري

وضعٌ حرجٌ يعيشه قطاع السينما في المغرب، لعلّه الأصعب منذ عقود. صحيحٌ أنّ الأزمة كونية، بسبب جائحةٍ لم تزر بلداً لم تطبعه بإجراءات الاحتراز والغلق والمنع؛ لكنّ تأثّر قطاعات الثقافة والفنون بها يختلف من بلدٍ إلى آخر، بحسب حجم الإصابات، وتداعياتها على الحياة العامة، واختلاف السياسات العمومية المتّخذة. ينبغي القول إنّ استراتيجية تدبير الشأن الثقافي في المغرب، بموازاة تطوّر الجائحة، لم تكن رحيمةً بالنشاط السينمائي. ففي حوار قصير مع إذاعة «ميدي 1»، صرّح بيار فرنسوا بيرني، مؤسّس مجمّع قاعات «أطلس» في الرباط، بمدى الإحباط الكبير الذي يعانيه المستثمرون والمشتغلون في قطاع استغلال السينما في المغرب، خصوصاً القاعات التي لا تتوفّر على أي سيولة في الخزينة، تُمكّنها من امتصاص التكاليف الباهظة، وأوّلها تعويضات الموظّفين: «لم يتكفّل «صندوق الضمان الاجتماعي» بأجور موظّفينا، وهذا مُستغرَبٌ جداً بالنسبة إلينا. يكفي مثلاً أنْ تفقد مقاولة تشتغل في السياحة 25 في المائة من رقم معاملاتها، كي تستفيد من التكفّل. نحن فَقَدنا 100 في المائة من رقم معاملاتنا، ولم نستفد بشيء، رغم الاتصالات والمراسلات العديدة التي أجريناها، وظلّت من دون جواب»، كما قال بيرني مُتحسّراً.

غياب الدعم والخطط

منذ إغلاق القاعات السينمائية في مارس/ آذار الماضي، أي منذ 8 أشهر كاملة، لم يُتّخذ أيّ إجراء كفيل بتخفيف تداعيات الأزمة على الشركات المالكة لهذه القاعات، ما عدا دفعة دعم يتيمة، تُغطّي جزءاً من الخسارة التي تكبّدتها القاعات في الأشهر الثلاثة الأولى من الحجر الصحي. بعد ذلك، لا شيء. لا السلطات سمحت بفتح القاعات، مع احترام إجراءات التباعد والاحتراز، في بداية الصيف، كما حدث في كلّ بلدان العالم تقريباً؛ ولا هي مدّتها بإعاناتٍ تُسدّد، بفضلها، جزءاً من تكاليفها الكبيرة، في 4 أشهر كاملة: «إذا طلبْتَ، في محرّكات البحث على الإنترنت، كلمتي «سينما» و «بؤرة»، لن تحصل على أي جواب، لأنْ لا بؤرة نجمت عن أيّ عرض سينمائي بكلّ بساطة. في قاعة سينما، يجلس أشخاص يضعون أقنعة وقاية، مع مقعدين يفصلان مُتفرّجاً عن آخر، بينما ينظر الجميع في اتجاه الشاشة، من دون أنْ يتحدّث أحدهم إلى الآخر لأنّهم منشغلون بالفيلم. بحسب دراسة ألمانية، هناك (في القاعة هذه) احتمالٌ أقلّ 100 مرّة، لنقل العدوى من شخص إلى آخر، من شركة تشتغل في فضاء مفتوح، أو من مطعم. لا نفهم تماماً دواعي استمرار إغلاق القاعات»، يوضح فرنسوا بيرني.

> قطاع الاستغلال السينمائي في المغرب سيزداد تأزّماً

الأمر نفسه ينسحب على نشاط المهرجانات السينمائية في المغرب. كلّ طلبات تنظيم المهرجانات، التي تلت الدورة الـ21 (28 فبراير/ شباط ـ 7 مارس/ آذار 2020) لـ«المهرجان الوطني للفيلم بطنجة» قوبلت بالرّفض التام، في غياب أيّ مبادرة للاجتهاد أو المرونة، تأخذ بعين الاعتبار اختلاف الوضع الوبائيّ من منطقة إلى أخرى، أو مدى التزام الجهات المنظّمة بكل ضمانات احترام شروط السلامة والتباعد الاجتماعي، مع أنّ تجارب في دول عربية وأوروبية قريبة، تمرّ تقريباً في الظروف الوبائية نفسها المُسجّلة في المغرب، أثبتت أنّ المهرجانات، مثل القاعات، لا تُشكّل أيّ خطر، لتشكيل بؤرٍ أو لتسجيل إصابات.

«مخاطبونا هُم مسؤولو «المركز السينمائي المغربي» و«وزارة الثقافة». لكنْ، ما استنتجتُه من تلميحاتهم أنّهم هم أنفسهم يقفون عاجزين أمام تدابير وزارتي الداخلية والصحة (...). سنستمر في الاستثمار في المجمّعات التي شرعنا في بنائها، رغم الوضع المُمعن في الصعوبة. يمكننا الصمود حتى تعميم لقاح، لكنّنا سنخلّف ريشاً كثيراً في أرض المعركة، وسنكون مُجبرين على التخلّي عن مشاريعنا المستقبلية». أضاف بيرني مُمتعضاً: «في الرباط وحدها، ستكلّفنا الأشهر الثمانية للإغلاق زهاء 10 ملايين درهم (مليون دولار أميركي)».

أيّ مُستقبل؟

مع الإعلان عن اختراع لقاحات ضد «كوفيد 19»، وعن حملة مُقبلة لتطعيم تدريجيٍّ للمواطنين المغاربة به، في الأشهر المقبلة، يلوح أملٌ في انفراج ربما يفضي إلى فتح القاعات في الربع الثاني من العام المقبل. لكنْ، يُطرَح سؤال: على أيّ شكل، وبأيّ ثمن؟ فالمؤشّرات كلّها تقول إنّ قطاع الاستغلال السينمائي في المغرب، الذي يعاني هشاشة هيكلية واختلالات وظيفية، سيزداد تأزّماً بعد انصرام الجائحة، والخوف كلّه أنْ يتسبّب تخبّط السياسة العمومية، في تسيير الشأن الثقافي، في إفراز آثار وخيمة، لا رجعة فيها، على مصير قاعات عدّة، وعلى مصير المشتغلين فيها. يبدو أنّ المسؤولين عن هذا الوضع يؤْثِرون الجمود والتصلّب على المرونة والتكيّف اللازمين، لتجاوز الآثار والصعوبات من دون خسائر عميقة، مستعينين بالقول المأثور: «كم حاجة قضيناها بتركها»؛ بينما واقع سياساتهم يقول «كم حاجة قتلناها بتركها».

صالة سينما «ريالتو» في كازابلانكا: بانتظار الفرج (جان ـ لوك مانو/Getty)

«فتيات» بالوميرو: اختبارات بصرية

نديم جرجوره

بدقّة وعمق وهدوء، تُصوِّر الإسبانية بيلار بالوميرو (1980) لحظاتٍ وانفعالاتٍ وتغييراتٍ تمرّ بها وتعيشها مراهقاتٍ، يتابعن دراستهنّ في مدرسة للراهبات. جديدها «الفتيات» (Las Niñas) يتابع بعض مشاعرهنّ وتبدّلاتهنّ، ارتكازاً على سيرة سيليا (أندريا فاندوس)، ابنة الأعوام الـ11، المُقيمة مع والدتها أديلا (ناتاليا دي مولينا)، العاملة بجهدٍ كبير لتأمين متطلّبات عيشٍ متواضع. عالم الفتيات مكشوفٌ عبر يوميات سيليا ووالدتها الشابّة، التي تُخفي أشياء عن وحيدتها، أبرزها غياب الأب، فأديلا تقول بموته باكراً (قبل ولادة الابنة بأشهرٍ قليلة) إثر إصابته بأزمةٍ صحية مُفاجئة، و«ثرثرة» فتياتٍ تقول إنّ ولادة الابنة حاصلةٌ خارج الزواج، وهذه مُصيبة، فالمناخ مُتشدّد دينياً، إلى حدّ كبير. سلاسة السرد جزءٌ من رواية تفاصيل وفضاءات. لحظات عدّة تشي بتكرارٍ روتيني لحياة خالية من أي تجديد، رغم أنّ وصول تلميذة جديدة سيصنع فرقاً في حياة سيليا ورفيقاتها، وبعضهنّ مستعدٌّ للتغيير، وذاهبٌ إليه بحماسةٍ مبطّنة. بُريسا (زُوي أرنـاو) مختلفة، تحمل من المدينة صخَبها وارتباكاتها، لكنّها تحافظ على هدوءٍ في سلوكها، وتنجذب إلى سيليا، وتؤثّر بها، ولو قليلاً. رتابة اليوميّ في حياة الفتيات (العنوان الإنكليزي للفيلم: «فتيات المدرسة») ينعكس في متابعة مساراتهنّ بأسلوبٍ بصريّ يشي ببعض الرتابة. منزل ومدرسة ودروس وتمرينٌ على الغناء، ولقاءات في منزل، ومغامرة الرقص في ملهى والتعرّف إلى صبيانٍ، وتشدّد الإدارة وقلق الأم والأسرار التي يُؤكّد السياق وجودها، مواربة. عناوين يوميات متشابهة، تتغيّر لاحقاً، مع حدثٍ يفرض على أديلا زيارة أهلٍ، يفصلها عنهم جفاء وابتعاد.

> التصالح وتقليص المسافات أهمّ وأقدر على تحديد إجابات

حالتان تختلف إحداهما عن الأخرى، رغم تكاملهما في تحقيق فيلمٍ، تمتلك نساء عديدات مناصب مهنيّة أساسية فيه، أبرزها التوليف (صوفي أسكودي) والتصوير (دانييلا كاغياس) والإنتاج (فاليري دِلْبيار). ملاحظة غير معنيّة بالقول إنّ «الفتيات» نسوي، بقدر ما تعكس حساسية سينمائية في التقاط مفاصل جوهرية في شعور وتصرّف وقول، كما في نبرة وسلوك وتحرّك. بُطء الإيقاع يُتيح تفكيكاً هادئاً للحالتين، إذْ يتأثّر عالم أديلا، الغائب كلّياً عن المشهد إلا في لحظاتٍ قليلة، بعالم سيليا، فالمراهِقة تكتشف ذاتاً وروحاً وجسداً وأحاسيس ورغبات، وتبغي إجابات عن أسئلة أساسية، لكنّها معلّقة في حياتها.

تصوير أمكنة مغلقة (منزل، ملهى، غرفة صفّ، صالة عرض سينمائي)، بعتمتها وإضاءتها، يُلازمه غالباً تصوير لقطات مقرّبة، كأنّ نبض الحكاية يسري في حميميةٍ تريد ابتعاداً عن جماعة تحاصرها، فيُحصّن التصوير (والتوليف لاحقاً) هذه الحميمية بلقطاتٍ، تبدو كأنّها تُلغي الأوسع، حمايةً لفردية فتياتٍ يكتشفن أنفسهنّ والعالم حولهنّ. أما الإجابات، فلن يُصرَّح عنها، باستثناء لحظاتٍ تتحايل على المُباشر لقولٍ مبطّن عبر صورةٍ أو ملمحٍ أو نظرة عينين، أو مكانٍ يُعانِد مخفياً، ويكاد ينفي كلّ ثرثرة مُسيئة لوقائع.

«الفتيات» (2020، إسبانيا، 97 دقيقة)، نصّاً (سيناريو بيلار بالوميرو) واشتغالاتٍ، اختبار بصريّ لكشف عوالم مرتبكة بصمتٍ، ومتمرّدة بهدوءٍ يكاد (الهدوء)، لشدّة حضوره فيهنّ، يُخفي كلّ تمرّد انفعاليّ. التصالح، كتقليص المسافات، أهمّ، وأقدر على تحديد إجابات لن يُعنى النصّ بها مباشرة.

المخرجة بيلار بالوميرو (الى اليمين) والممثلة ناتاليا دي مولينا (كارلوس الفاريز/ Getty)

أقوالهم

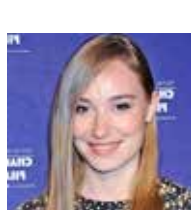

لم أشعر يوماً أنّه يمكن تصنيف الأفلام. ساتياجيت راي لم يميّز بين السينما الموازية والأفلام التجارية. يقول: «هناك فيلم جيد وآخر رديء، فيلم غير مبال وآخر متوسط المستوى». لكنّه لم ينحز قط إلى فكرة الأفلام الفنية والأفلام التجارية. رأيه يتماشى مع رأيي. هناك مليون نوع من الأفلام، من بينها ألتقط الجيد، الذي يعكس الجهد المبذول. هذا هو العمل الجيد بنظري. أؤمن بالتقييم لا بالتصنيف.

سوميترا تشاترجي

ساشا بارون كوهين (الصورة) معروف بصهيونيته. يُذكّر دائماً بالمحرقة. لوهلة، يبدو كأنّ المهدّدين هم ضحايا الهولوكوست الأول، الغجر واليهود. في «بورات 2»، يلتقي في كنيس بناجية من المحرقة، في مشهد مؤثّر، لكنّه مُعاد. الذاكرة ضرورية، لكن تلك الذاكرة الطاغية تخفي ضحايا الحاضر المستهدفين علناً (سود ومسلمون ولاتينيون).

شادي لويس

أفعالهم

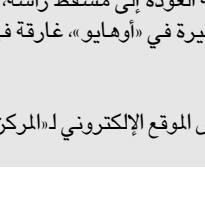

Holidate فيلم أميركي لجون وايتسل، تمثيل إيما روبرتس (الصورة) ولوك بْراسي: يكره سلوان وجاكسون الأعياد. عازبان متصلّبان، يجدان نفسيهما غالباً إما على طاولة أطفال أو بين رفاق عديمي الفائدة. لكنّهما يُضطرّان لمشاركةٍ في احتفال عيد الميلاد، فيعدان بعضهما على البقاء معاً بعد العيد، وعلى تحقيق الأفضل، وعلى عيش الضحك دائماً.

Irremediable فيلم إسباني لكارلِس تورّاس، تمثيل ديبوراه فرنسوا (الصورة) وماريو كاساس: بعد تعرّضه لحادث سير مفاجئ، أثناء تأديته مهمّة إسعاف مصابين في حادث سير آخر، يُصاب آنجل بشلل يُقعده على كرسيّ متحرّك. لكن الغضب يفتك به، ويُقرّر الانتقام ممن سبّب له العجز الجسدي، خصوصاً المرأة التي أحبّها لظنّه أنها تخونه.

أخبار

◆ في 24 نوفمبر/ تشرين الثاني 2020، ألقى الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون خطاباً قال فيه إنّ هناك احتمالاً كبيراً للسماح للصالات السينمائية في فرنسا بإعادة فتح أبوابها أمام المشاهدين، بدءاً من 15 ديسمبر/ كانون الأول 2020، «في حال تمّ تحقيق الأهداف الصحيّة من عملية الإقفال العام». يُذكر أنّ الصالات أغلقت أبوابها مجدّداً في 30 أكتوبر/ تشرين الأول 2020، مع بداية «الموجة الثانية» من تفشّي وباء كورونا. أما بخصوص إعادة افتتاحها قريباً، فيُشدِّد المعنيون على ما قاله ماكرون: يجب التزام المعايير الصحية والسلامة العامة والتباعد الاجتماعي داخل الصالات وفي محيطها.

◆ مع نجاح The Princess Switch: Switched Again، لمايك رول، على شاشة المنصّة الأميركية «نتفليكس» (بدءاً من 19 نوفمبر/ تشرين الثاني 2020)، أعلنت الممثلة الأساسية فيه فانيسا هادجنز أنّ التحضيرات جارية لإنتاج جزء ثالثٍ من تلك السلسلة السينمائية (الأول مُنتج عام 2018)، قائلة: «نعمل حالياً على الـ(سكريبت)، بهدف الذهاب إلى أبعد ما يُمكن في عملية تحقيق جزء جديد. سيكون الأمر مسلّياً». في الإطار نفسه، قال مسؤولون عديدون إنّ السلسلة السينمائية لن يكون لها جزء رابع... أقلّه إلى الآن.

◆ بعد غياب 3 أعوام عن الشاشة الكبيرة، تعود الممثلة الأميركية غلن كلوز إليها في فيلم جديد (2020)، بعنوان Hillbilly Elegy، لرون هاورد، إلى جانب آمي آدامس: في منطقة «آبّالاش»، يروي جي. دي. فانس (طالب حقوق في جامعة «يال»)، حكاية عائلته، المزيّنة بـ«الحلم الأميركي»، من خلال 3 أجيال. لكنْ، عليه العودة إلى مسقط رأسه، وهي بلدة صغيرة في «أوهايو»، غارقة في الإدمان والفقر.

◆ يعرض الموقع الإلكتروني لـ«المركز السينمائي المغربي» حالياً 6 أفلام قصيرة (من إنتاجه)، تروي تأمّلات ومشاعر 6 مخرجين مغاربة، في زمن كورونا والحجر المنزلي وتأثيرات الوباء في الفرد وعلاقاته وعزلته: «مسافة» لمحمد مفتكر، و«شجر» لفوزي بنسعيدي، و«بطاقة بريدية في زمن كورونا» لتالا حديد، و«دون خواتم» لحكيم بلعباس، و«سيناريو سيئ» لعادل الفاضلي، و«فين بانتلك أركاديا» لياسين ماركو ماروكو. يُذكر أنّ مُشاهدة الأفلام متاحة مجاناً للراغبين.